مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(٢ تيموثاوس ٤: ٥–٨)

يا ولدي تيموثاوُسَ تيقَّظْ في كلِّ شيءٍ واحتَمِل المشقَّات واعمَلْ عَمَلَ المبشِّرِ وأوفِ خدمتَكَ* أمَّا أنا فقد أُريقَ السَّكيبُ عليَّ ووقتُ انحلالي قدِ اقترب* وقد جاهدتُ الجِهادَ الحَسَن وأتممتُ شَوْطي وحفظتُ الإيمان* وإنَّما يبقى محفوظاً لي إكليلُ العدلِ الذي يَجزيني به في ذلك اليومِ الربُّ الديَّانُ العادل لا إيَّايَ فقط بل جميعَ الذينَ يُحبُّونَ ظُهورَهُ أيضاً.

الإنجيل

(مرقس ١: ١–٨)

بدءُ إنجيلِ يسوعَ المسيح ابنِ الله. كما هو مكتوبٌ في الأنبياءِ: هاءَنذا مُرسِلٌ ملاكي أمام وجهِك يُهيِّءُ طريقَك قدَّامك* صوتُ صارخٍ في البريَّة أعِدُّوا طريقَ الربِّ واجعَلوا سُبُلَه قويمةً* كان يوحنَّا يعمّد في

عيد الظهور الإلهي

تتّفق الروايات الإنجيليّة على أنّ يوحنا المعمدان عمّد يسوع في مياه نهر الأردن، وذلك قبل مباشرة يسوع نشاطه التبشيريّ انطلاقاً من الجليل. ورغم اختلاف هذه الروايات في عدد من التفاصيل، إلاّ أنّها تلتقي على أنّ معموديّة يسوع كانت، بالدرجة الأولى، ظهوراً لبنوّة يسوع الإلهيّة. ففيما يؤكّد كلّ من متى ومرقس ولوقا أنّ الآب السماوي أعلن، عبر صوت من السماء، هذه البنوّة، يشير يوحنا الإنجيليّ إلى أنّ المعمدان هو مَن يشهد لهذه البنوّة التي أُعلنت له عبر حلول الروح القدس على يسوع: «وأنا لم أكُن أعرِفُهُ، لكنَّ الذي أرسَلني لأُعَمِّدَ بالماءِ ذاك قال لي الذي ترى الروحَ نازلاً ومُستَقِراً عليه فهذا هو الذي يُعمِّدُ بالروحِ القُدُس. وأنا قد رأيتُ وشَهِدتُ أنّ هذا هو ابنُ اللهِ» (يو ١: ٣٣–٣٤).

هذا الإعلان عن بنوّة يسوع يستهدف، بالدرجة الأولى، قرّاء الإنجيل. ففي إنجيل مرقس، مثلاً، يتوجّه الآب السماوي بكلماته، لا إلى الجمع، بل إلى يسوع مباشرة، بحيث تبقى بنوّة يسوع الإلهيّة خافيةً عن الجمع: «أنت ابني الحبيبُ الذي به سُرِرتُ» (مر ١: ١١). هذا مرتبط، طبعاً، بالخطّ اللاهوتيّ في إنجيل مرقس الذي يعتبر أن بنوّة يسوع الإلهيّة لا تظهر على الملء إلاّ في مواضع قليلة، على الصليب، مثلاً، عبر كلمات قائد المئة الرومانيّ: «حقاً كان هذا الإنسانُ ابنَ اللهِ» (مر ١٥: ٣٩).

من البديهيّ، أيضاً، أنّ معمودية يسوع في الأردن كانت ظهوراً للثالوث القدوس، ذلك لأنّ الأقانيم الثلاثة تشترك في هذا الحَدَث على نحو جليّ. فالابن يتعمّد، والآب يتكلّم ويؤكّد المصدر الإلهي للابن، والروح القدس يستقرّ على الابن النازل إلى مياه النهر متّخذاً شكل حمامة. هذا، بما لا يقبل الشكّ، أوّل ظهور ثالوثيّ جليّ بحسب رواية الأناجيل. ويؤكّد التقليد الكنسيّ الأرثوذكسيّ أهميّة هذا الحَدَث وفرادته من حيث اعتباره ذكرى معموديّة يسوع لا مجرّد تذكّر لحادثة المعموديّة في الأردن، بل ظهوراً مبيناً لحضور الله حضوراً ثالوثياً في تاريخ الخلاص، بحيث يصبح حَدَث المعموديّة مدخلاً إلى الإيمان بالثالوث والسجود له: «باعتمادك يا رب في نهر الأردن، ظهر السجود للثالوث».

العدد ١/٢٠٠٩
الأحد ٤ كانون الثاني
الأحد قبل الظهور الإلهي
تذكار جامع للقديسين السبعين رسولاً والبار ثاوكتيستس رئيس دير قوموس في جزيرة صقلية
اللحن الرابع
إنجيل السَحَر السابع

البريَّـة ويـكـرز بمعـمـوديـةِ الـتـوبـةِ لـغـفـران الخطايـا* وكان يخرج إليهِ جميعُ أهلِ بـلـد الـيـهـوديـة وأورشـليمَ فيعتمدون جميعُهم منه في نـــهــرِ الأردن مــعترفين بخطاياهم* وكان يوحنا يَـلـبَـس وَبَـرَ الإبِـلِ وعـلـى حَـقَـوَيْـهِ مِـنـطـقـةٌ من جلدٍ ويأكلُ جراداً وعسلاً برّيًّا* وكان يكرزُ قائلاً إنَّه يأتي بـعـدي مـن هـو أقـوى مـني وأنـا لا أسـتـحـقُّ أن أنـحـنـيَ وأحـلَّ سَـيْـرَ حِـذائِـه* أنـا عـمَّـدتُـكـم بـالماءِ وأمَّـا هـو فيُعمِّدكم بـالروح القدس.

تـأمل

«كان يوحنا يعمّد في البريَّـة ويـكـرزُ بمعـمـوديـةِ الـتـوبـةِ لـغـفـران الخطـايـا» (مر ١: ٤).

لم يكن عنده طبعاً موهبة غفران الخطايا لأن هــذه الــهــبــة تـخـتـصّ بـالمعمودية التي أعطيت لاحـقـاً. لأنـه مـع هـذه المعــمــوديــة الــلاحــقــة (معموديّتنا) نُدفن ويُصلب إنـسـانـنـا الـعـتـيـق. قـبـل الصليب لا يوجد مسامحة أبداً. الغفران مرتبط بدم المسـيـح. يـقـول بـولس الرسول: «لكن اغتسلتم بل تقدّستم بل تبرّرتم بـاسم الرب يسوع وبروح إلهنا»

إذا، لـئـن أراد يسـوع أن يـأتـي إلى الأردن ويعتمد من يوحنا، كما كان يفعل مئات من سكّان اليهوديّة في زمـنـه، إلاّ أنّ مـعـمـوديّـتـه تصبـح مناسبةً لاعتلان إلهيّ من نوع آخر يـتـجـاوز، بما لا يـقـاس، حـدود معموديّة التوبة التي كان يقوم بها يوحنا.

بالإضافة إلى الظهور الثالوثيّ، يؤكّد التقليد الإنجيليّ الاختلاف الجذريّ بين يـوحـنـا المعـمـدان ويسوع. ففيما الطفل المولود من أليصابات يُدعى «نبي العليّ» (لو ١: ٧٦)، الطفل المولود من مريم هو ابن الله نفسه: «الروحُ القُدُسُ يحِلُّ عليكِ وقُوَّةُ العليِّ تُظلِّلكِ فلذلك أيضاً الـقـدوس المولـودُ مـنكِ يُـدعـى ابـنَ اللهِ» (لو ١: ٣٥). وفيما الأوّل، أي يـوحـنـا، مـولـود مـن زرع طبيعيّ، الثاني، أي يسوع، مولود من بتول، ما يؤكّد أصل يسوع الإلهي. فالعهد القديم يشير صراحة إلى ولادات بعد شيخوخة أو عقر، كما في حال سارة وحنّة، أمّ صموئيل، لكنّه لا يذكر أيّ ولادة بتوليّة. بيد أنّ الاختلاف بين المعمدان والناصريّ لا ينحصر في الأصل الإلهيّ الذي يمتاز به يسوع، بل الوظيفة التي سيضطلع بها مقارنةً بالمعمدان. فيوحنا يعمّد بالماء من أجل التوبة، أمّا يسوع فيعمّد بالروح القدس والنار (لو ٣: ١٦). وفي هذا إشارة واضحة إلى اختلاف المعموديّة التي دشّنها يسوع، لا من حيث الشكل، بل من حيث المضمون، عن معموديّة يوحنا. فمعموديّة يسوع ليست مجرّد غفران للخطايا، بل عطيّة الحياة الجديدة بالروح القدس. إنها ليست مجرّد عودة ضميريّة إلى الذات وعفّ عن الخطايا وتكفير عن الزلاّت السابقة، بل تغيير كيانيّ في أعماق الكيان الإنسانيّ لا يتمّ إلاّ بنعمة الثالوث القدّوس الفاعل فيه.

لئن تؤكّد الأناجيل، إذاً، أنّ يسوع نال معموديّة يوحنا، إلاّ أنّ معموديّته هذه تصبح مناسبةً يعلن فيها الإنجيليّون دفق الحياة الجديدة، حياة الثالوث القدوس، التي يدشّنها ابن الله عبر حلوله بيننا.

عظة الميلاد

في ما يلي العظة التي ألقاها سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس في قداس الميلاد:

«المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرّة».

أيها الأحباء، الإنسان أحد مخلوقات الله، لكنه مختلف عنها كلّها، بل هو أرقاها. كلُّها كانت بكلمة من الله. ليكن نورٌ، ليكن جَلَدٌ، ليكن ماء... أما الإنسان فقد جبله اللهُ من التراب، بيديه الطاهرتين، ونفخ في أنفه نسمة حياة: «جَبَلَ الربُّ الإلهُ آدمَ تراباً من الأرض ونفخ فيه نسَمَة حياة فصار آدمُ نفساً حية» (تك ٢:٧)، «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا... فخلق اللهُ الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم» (تك ١: ٢٦–٢٧).

منذ الخلق إذاً ميّز اللهُ الإنسانَ عن سائر المخلوقات كما ميّزه بأن جعله سيدها، يسودها ويُطلق عليها أسماءها. وكرّمه بأن جعله خليلاً له وكليماً، ومَلِكاً على الكائنات كلّها، وحرًّا في اختيار ما يريد. لكن الله منع الإنسان عن أمر واحد، إمتحاناً لمحبته لخالقه وطاعته له.

قداسة الإنسان تبتدئ بالطاعة. وسقوط الإنسان كان بسبب عقوقه وتمرّده على خالقه، أو لنقل كبريائه.

محبة الله الخالق لخليقته الأسمى جعلته يتّخذ الإنسان ليخلّصه. «ومع كونه إلهاً أزلياً ظهر على الأرض إنساناً وخالط الناس. وبتجسده من العذراء، القديسة مريم،

(١ كور ٦: ١١) ويقول في مكان آخر: «إن يوحنا عمَّد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده أي بالمسيح يسوع» (أع ١٩: ٤). لم تقدّم بعد الذبيحة، لم ينزل الروح، لم تحلّ الخطيئة، لم تنطفئ العداوة ولم تُرفع اللعنة، فكيف يمكن أن يُعطى الغفران؟

ماذا تعني العبارة «لغفران الخطايا»؟ كان اليهود ناكري الجميل لا يتحسّسون خطاياهم. يرتكبون أكبر الجرائم ويبرّرون أنفسهم كلّياً ما أوصلهم إلى الهلاك وأبعدهم عن الإيمان. لذلك كان بولس الرسول يوبّخهم قائلاً: «لأنهم إذ كانوا يجهلون برّ الله ويطلبون أن يثبتوا برّ أنفسهم لم يخضعوا لبرّ الله» (رو ١٠: ٣).

لقد جاء يوحنا وحاول أن يجلبهم إلى معرفة خطاياهم. يشير إلى ذلك لباسُه الذي كان لباسَ توبة واعتراف. وهذا أيضاً هو معنى كرازته. اقتصر قوله على هذه العبارة: «إصنعوا ثماراً تليق بالتوبة» (لو ٣:٨). جعلهم يُحسون بخطاياهم كي يقودهم إلى طلب المخلّص وإلى الرغبة في الغفران. جاء يوحنا من أجل هذا أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، وصار مساوياً لنا في هيئة جسدنا الحقير لكي يجعلنا مساوين له في صورة مجده. فإنه لما كان بإنسان واحد قد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة دخل الموت، ارتضى الإبن الوحيد الكائن في أحضان الآب أن يولد من امرأة هي والدة الإله القديسة الدائمة البتولية مريم، ويصير خاضعاً للناموس فيقضي على الخطيئة بجسده، حتى إن الذين يموتون بآدم يحيون بالمسيح».

إذاً تجَسَدَ الله، كاسراً الحاجز الذي سبّبته الخطيئة. «والآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح، لأنه هو سلامنا» (أف ٢:١٣–١٤). تنازل من علياء مجده ليرفع الإنسان إلى علو سمائه. لبس الإنسان بكليته ما عدا الخطيئة، ليتألّه الإنسان. وقد وُلد في العالم لكي يهدي البشر إلى نِعَم السلام السماوي. نزل اللاهوت وارتدى الناسوت. عندئذ صرخت الملائكة: «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرّة».

إن التدبير الإلهي لمجيء فادينا بالجسد هو إعادة تجديد العالم ومصالحته مع الله. ومن أجل تحقيق هذا الهدف تجسد وتألّم وقام من بين الأموات... قادنا إلى سلام الله بإعادة تجديدنا. لقد قال الرسول بولس: «جاء وبشّركم بسلام أنتم البعيدين والقريبين لأن به لنا كلينا قدوماً في روح واحد إلى الآب» (أف ٢: ١٧–١٨). ويقول في مكان آخر «أنتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين وأعداء في الفكر، في الأعمال الشريرة، قد صالحكم الآن في جسم بشريّته بالموت ليُحضركم قديسين وبلا لوم ولا شكوى أمامه» (كو ١: ٢١–٢٢).

فمن يسعَ إلى السلام والمصالحة يسعَ إلى المسيح لأنه هو سلامنا، ومن أصبح في المسيح أصبح ابناً لله بالإيمان بيسوع المسيح. في المسيح لا فرق بين إنسان وإنسان، بين عِرق وعِرق، بين لون ولون: «ليس يهوديٌ ولا يونانيٌ، ليس عبدٌ ولا حرٌ، ليس ذكرٌ وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع» (غلا ٣:٢٨). إذاً أنتم للمسيح والمسيح لله (١ كور ٣:٢٣) «ولنا إلهٌ واحد، الآبُ الذي منه جميع الأشياء ونحن له، وربٌ واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به» (١ كور ٨:٦).

اللهُ صالَحَ الإنسان ليتصالح الإنسانُ مع نفسه ومع سائر الخلائق، ومع الطبيعة التي يعيش فيها والبيئة التي تحيط به.

الإنسان لا يستطيع أن يتصالح مع نفسه إن لم يتصالح مع أخيه، إن لم يكن هناك سلامٌ حقيقي بينه وبين أخيه. السلام الحقيقي هو السلام القلبي لا الكلامي، لأن الطاهر القلب وصانع السلام عندما يُضطهد من أخيه لا يتردد في أن يقدّم حياته من أجله. المسيح لا يقبل ذبيحة العبادة بدون ذبيحة المحبة. المصالحة مع الأخ هي الذبيحة التي تسمح للمؤمن الاقتراب من المذبح ومن جسد الرب ودمه. المحبة هي الذبيحة العظمى. إن لم يكن هناك محبة للقريب لا تُقدَّم ذبيحة ولا تُكرَّس.

ما زلنا نرى الإنسان عدواً للإنسان، الحروبُ والتقاتل والحقدُ وموتُ الأبرياء خيرُ دليل. ما زلنا نرى الإنسانَ عدواً لنفسه وهو الذي يُسيء إلى الطبيعة الممنوحة له من الله. يشوّه البيئةَ بجميع الوسائل (بالكسارات والمقالع والأبنية الشاهقة وأمور أخرى كثيرة) يتسبّب في حرق الغابات (لكي يبني أو يستعمل الخشب) فينتشر التصحّر ويتغيّر المناخ .يلوّث البحارَ

العمل. طبعاً لا لمعاقبتهم بل ليتواضعوا عن طريق التوبة، ليُدينوا أنفسهم ويسرعوا إلى مغفرة الخطايا.

... كان يوحنا يكرز بمعمودية التوبة في بريّة اليهودية». أضاف «لمغفرة الخطايا». أراد أن يقنعهم بالإعتراف وبالتوبة عن خطاياهم. لا للعقاب بل لكي يتقبّلوا بصورة أسهل الغفران بعد مرحلة التوبة. إن لم يُدينوا أنفسهم فلن يطلبوا النعمة. وإن لم يطلبوها فلن يحصلوا على المغفرة.

إذاً جاءت معموديته تهيئة لمعمودية يسوع. لذلك كان يقول: «أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده» (أع ١٩:٤)، معطياً بهذا سبباً آخر للمعمودية... احترام الشعب ليوحنا وقناعتهم بجدوى معموديته كانا يجذبان حشود المؤمنين إلى الأردن. وكان همُّ المعمدان أن يجعلهم متيقظين، دون أن ينظروا إلى أنفسهم نظرة عالية. كان يحذّرهم أنهم سوف يعانون أشدّ النوائب إن لم يتوبوا. إن لم يتخلّوا عن تكبّرهم السابق فلن يتقبّلوا ذاك الذي يأتي.

القديس يوحنا الذهبي الفم

فتنقرض الثروة البحرية، يصطاد الطيور، المخلوقات الضعيفة التي لا تقوى على مقاومته، لا من أجل أن يقتات أو أن يقي نفسه من الجوع بل من أجل التسلية، وهي التي خُلقت لدورها المفيد في حركة الطبيعة.

الإنسان لا يتصالح مع نفسه إن لم يتصالح مع الطبيعة التي يعيش فيها والبيئة التي تحيط به. ولكن ما هي ردة فعل الإنسان؟ هل هو على قدر المسؤولية؟ هل عمّ سلامُ الله في قلبه وفي ما حوله؟ هل أزهرت محبة الله له وأثمرت؟ عداوة الإنسان للطبيعة والبيئة تنعكس سلباً عليه. فماذا عن عداوته لنفسه؟

يُدَخِّنُ فلا يلوّث الطبيعةَ فقط بل يُسيء إلى جسده الذي هو إناءُ الروح القدس، الذي هو هيكلُ الروح القدس. يرتكبُ المعاصي ويتعاطى المخدرات، غيرَ آبهٍ بالأخلاق والقيم، غيرَ عامل على تثمير الوزنات الممنوحة لهُ من الله. كذلك يسيء إلى أخيه الإنسان، ويتعامى عن كونه مخلوقاً على صورة الله ومثاله. ألا نشهد كلّ يوم السرقات والتعديات على الأملاك والكرامات وعلى الأخلاق وعلى الحياة وكأنها مُلْكٌ لنا؟ ألا يكفي أن نراقب الطرقات لنشعر بالخجل من أسلوب القيادة ومن التعدي على الأنظمة والقوانين والاستهانة بها من قِبَل المواطنين ومن قِبَل من هم مؤتمنون على الحفاظ عليها؟

ألا نخجل من معاملة الإنسان لأخيه الإنسان، وطريقة التخاطب المتداولة هذه الأيام ما نسمعه خصوصاً من بعض من يُطلب منهم أن يهدوا الناس ويسوسوهم. لا غرابة في الأمر فإن الرب قال «لكثرة الإثم تبرُدُ محبة الكثيرين» (متى ٢٤:١٢).

الإنسان خَسِرَ قيمته في عيني أخيه. الإنسان أصبح سلعة أو وسيلة لبلوغ المآرب. ألهذا خلق اللهُ الإنسانَ وأحبه حتى إنه مات من أجله؟

تدبيرُ الله مختلفٌ عن رؤية الإنسان لنفسه ولما حوله وهذه الرؤية المختلفة للإنسان سببها بُعدُ الإنسان عن الله. لم يَعُد اللهُ مركزَ حياةِ الإنسانِ ومحورَ تفكيره. لم يَعُدْ فِكرُ الإنسان فكرَ الله ولا غاية الإنسانِ الالتصاق بخالقِه. لهذا نشعر وكأننا في برج بابل جديد، أو كأننا نعيشُ نهاية الأزمنة حيث يثور الأب على ابنه والإبنُ على أبيه كما يقول الكتاب «وسيُسلِمُ الأخُ أخاه إلى الموت والأبُ وَلَده، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم» (مر ١٣:١٢)، ونشهَدُ حروباً وآفات ولا يعودُ الواحدُ يَفقَهُ أين يعيشُ ولماذا. المآسي تتوالى والحروبُ تحصدُ الآلافَ وكأنهم لا شيء والحيوانيةُ في الإنسان تغلبُ إنسانيتَه، وضميرُه الذي هو صوتُ الله في داخله يتلاشى.

الصورةُ لا شك مأساويةٌ ولكنها ويا للأسف حقيقية ولا علاج إلا بعودة الإنسان إلى صورتِه الأولى الناصعة التي خلقه اللهُ عليها. لا حلّ إلاّ برجوع الإنسان إلى أحضان الخالق وطاعته.

ليكن هذا العيد حافزاً لنا للتأمل في مقاصِد الله وفي حكمته. ليكنْ مَعْبَراً لنا إلى اليقينِ الوحيد: أن لا حياة لنا بعيداً عن الإله الذي بذَلَ نفسه ليشترينا بدمِه من لعنةِ الموت وظلمةِ الجحيم ويمنحنا الغبطة الحقيقية، والحياة الأبدية حيث لا وجع ولا حزن ولا تنهد بل الفرحُ الإلهي والنورُ الذي لا يعروه مساء.

ألا جعل اللهُ سلامَه في قلوبنا وفي وطننا وفي العالمِ أجمع آمين».